اختبارات روحية

للقديس مار أفرآم السرياني

بقلم يوسف حبيب

مقدمة

باسم الآب والابن والروح القدس إله واحد آمين ؟

وجدنا بين مقالات القديس العظيم الأنبا أفرام السرياني[1] هذا المقال الفريد المؤثر الجامع لكل ما يحرك النفوس ويقودها إلى التوبة والتحلي بالفضائل المسيحية ، فهي بلا شك من أروع مقالات القديس من أجل مختـــاراتها المفعمة بالنصائح الرعوية والارشادات التقوية، فيها من الاختيارات الروحية ذخيرة لا تنفذ فاعليتها فهي نافعة لجميع المستويات وبالاخص الذين يسلكون طريق التوبة ومن هم وقوف على أبوابها ، في عيونهم بصيص من الأمل وفي قلوبهم نبض الرجاء يدفع الحياة الروحية ، فهي تجلو الصدأ من القلوب والبصائر وتغسل النفوس من الذنوب ، كأنها ملهمة لمن يرومون أن يكونوا مؤهلين بالروح فطوبى لمن يقرأها بفهم وتروٍ وتدقيق ... ولإلهنا المجد الدائم إلى الأبد آمين ؟

(١) هو مدير كلية اللاهوت التي كانت ذائعة الصيت في القرن الرابع حيث لمع نجم القديس وهو من أعلم علماء السريان وأفضل شعرائهم ورئيس أديرة الرها ، صاحب المؤلفات الضخمة النفيسة .

مقالة على السهر الروحي[1]

يبدأ القديس مقاله متأملا ويرنو ببصره إلى الأعالي مادحاً من سبقه من القديسين فيقول : -

« من يعطي لرأسي ماء ولعيني دموع لأبكي نهاراً وليلا على كلوم نفسي وعلى رخاوة الموعظة الصائرة في أيامنا لأن نفسي علوة جراحاً وهي لا تدري، لأن تعظمها لا يسمح لها أن تتأمل كلومها للتشفي وذلك كان وحده عظة في أيام آبائنا لأنهم أشرقوا كالشمس وكالنجوم في كافة الأرض » .

ثم يستنهض الهمم فيقول عنهم : -

« كانوا مثل جواهر كريمة ولؤلؤ جزيل ثمنه ، من أجل فكرهم الكثير وسيرتهم الصبية صار الأردياء أنفسهم متشبهين بهم ، لأن من كان يشـــاهد تواضع رأيهم ولا يتخشع ؟ أو وداعتهم وصمتهم فلا يتحير ؟ أي محب المال كان يعاين تركهم للغنى ولا يصير مبغضاً للعالم ؟ أي متعطرس ومتكبر كان يرى سيرتهم الحسنة ولا يتذلل إلى التواضع ؟ أي خبيث أو دنس

(١) مقتطفات من المقالة الخامسة وموضوعها « الشك والتعزية الكثيرة والخنوع للمريدين أن يخلصوا » .

أى مخطوط أو غضوب وهو يخاطبهم لا ينتقل إلى الوداعة ؟ ـ هنا جاهدوا ، وهناك ابتهجوا لأن الله تمجد بهم والناس تبتوا فى تعاليمهم وانتفعوا ... » .

ثم يقول : أما نحن فقد تركنا الطرق المستقيمة . ليس من يترك الأموال من أجل الله . لا أحد يزهد من أجل الحيـــاة الأبدية ، ليس أحد وديعاً ومتواضعاً أو هادىء الطبع صبوراً على القذف ، بل الجميع مخطوطون ومجاوبون والكل عاجـــز وغضوب ... الكافة معجبون محبون للكرامة والمديح ...

ويعالج أهل زمانه وغيره من الأزمان فيقول : ـ

الذى قد جاء ليوعظ قبل أن يوعظ يعظ ، قبل أن يتعلم يشترع فرائض ، قبل أن يتهجى فى الكتب يضع كتباً ، قبل أن يطيع يروم أن يطـاع ، قبل أن يؤمر يأمر ... إن كان شيخاً يأمر بتعظم ، وإن كان شاباً يجاوب ، إن كان غنياً يطلب إكراماً وإن كان مسكيناً يسأل عن الراحة ... من لا يبكى يا أحباءى على حالنا من التعليم لأننا بينما نحن قد زهدنا فى العالم تأملنا المعقولات الأرضية ... لا نعرف إلى أى أمر قد دعينا ... دعينا إلى الطاعة

والوداعة ونجاوب متذمرين ، نقرأ ولا نعرف ، ونسمع ولا نعقل القول الذى فى ذواتنا .

إن صادف إنسان فى الطريق بغتة قتيلا تتغير نضارة وجهه ويجزع قلبه ونحن نقرأ أخبار الرسل المقتولين والأنبياء المرجومين وكأنها قيلت عبثاً . ولم أقول عن الأنبياء والرسل ؟

نسمع أن الإله الكلمة نفسه علق على خشبة من أجل خطايانا وقتل ونحن نلهو ونتنزه . الشمس لم تحتمل رؤية السيد مهاناً فنقلت بهامها إلى الظلمة ونحن لا نشاء أن ننتقل من ظله رذيلتنا .

فلنطهر إذن ذواتنا يا أحباءى ليسكن الإله فينا وننال مواعيده ... فلنشفق على ذواتنا متفهمين أن اسمنا قد إتفق مع اسم المسيح لأنه هو المسيح ونحن ندعى مسيحيين . الروح هو الإله ونحن صرنا روحانيين . لأنه حيث روح الرب هناك الحرية .

الجهاد من أجل الحرية والروحية

فلنحرص أن ننال هذه الحرية ، لنحضر لذهننا أية سيرة تلك التى قد أهلنا لها عالمين أنه إلى عرشه دعانا ... إصغوا إلى ذواتكم لئلا نطالب بطائلة مضاعفة يوم الدينونة . قد إنفصلنا عن العالم ونتدبر معقولات العالم ، استخفينا بالأموال ونهتم من أجلها . تخشى أن يدهمنا ذلك اليوم بغتة ونوجـــد عراة أشقياء وغير

مستعدين لأن هذا الأمر نفسه أصاب الذين كانوا فى عهد نوح . فى أيامه كانوا يأكلون ويشربون ويزوجون ويتزوجون ، يبيعون ويبتاعون إلى أن جاء الطوفان فأهلك الكل .

إن الأمر يا إخوتى عجيب جداً . إنهم كانوا يعاينون الحيوانات البريه ملتئم شملها وكانت تتقاطر . الفيلة والأسود والنمور وتجتمع مع الغنم والماعز ولا تصيبها بأذى ، وكذا الدواب والطيور... وهذه كانت فى الأيام الخالية ونوح نفسه كان يبنى الفلك ويهتف إليهم توبوا فلم يرتدعوا ، وكانوا يشاهدون بعجب اجتماع البهائم والحيوانات البرية لكنهم لم يتخشعوا ويخلصوا ...

فلترهبن يا أحبائى لئلا نصير نظير أولئك ...

من يشأ أن يخلص فليكن حذراً ولا يتوانى .

من يشأ أن ينجو من جهنم النار فليجاهد أصلب الجهاد .

من يؤثر ألا يطرح فى الدود الذى لا يرقد فليتيقظ مستفيقاً .

من يحب أن يدخل الخدر ويبتهج فليأخذ مصباحاً بهياً وزيتاً فى وعائه .

من ينتظر أن يتمكن فى ذلك العرس فليقتن حلة منيرة فإن مدينة الملك مملوءة سروراً وابتهاجاً ، موعبة نوراً وحلاوة .

تابعة لذة وحياة أبدية للساكنين فيها ، فمن يحب أن يسكن فى الملكوت ويستوطن اورشليم السمائية فليجتهد بصبر كثير وجهاد لأن النهار قد مال ولا يعلم أحد ماذا يلقى فى الطريق ، فمثله مثل مسافر كان يعرف بعد مسافة الطريق فاضطجع ونام إلى قرب المساء ثم انتبه وأبصر النهار قد مال ، فلما إبتدأ بالمسير تداركته بغتة الغيوم والبرد والرعود والبرق فاشتملته الغموم من كل جهة وتعاظمت ضيقته لأنه لا يستطيع الوصول إلى المنزل ولا يستطيع أن يعود إلى موضعه . هكذا بعينها نحن إن توانينا واضطجعنا فى أوان التوبة ، لأننا نحن سكان وراحلون فلنحرص أن ندخل إلى مدينتنا وموطننا بغزاء ، نحن يا إخوتى تجار روحانيون طالبو الجوهرة الجزيلة الثمن التى هى المسيح مخلصنا ، الكنز الذى لا يسلب . لهذا فلنقتنه بحرص كثير . مغبوط من حرص أن يقتنيه ، شقى من توانى . ألا تعلمون يا إخوتى اننا أغصان فى الكرمة التى هى المسيح . إحذروا إذن أن يوجد أحد غير مثمر فإن الذين يعطون ثمراً يطهرهم ليأتوا بثمر أكثر ، والذين لا يأتون بثمر يقطعهم ويرميهم خارج الكرم ليحرقوا بالنار . تأملوا ذواتكم حذرين من أن توجدوا غير مثمرين فتقطعوا وتلقوا فى النار . نحن بذار جيد زرعه المسيح سيد المنزل صانع السماء والأرض . وأوان الحصاد قد حان وبأيدى الحصادين المناجل منتظرين

إشارة السيد . فاحذروا أن يكون أحدكم زواناً فيشد حزماً ويحترق بالنار الدهرية .

ألا تتفهمون يا إخوتي أننا مزمعون أن نعبر لجة مرهبة والتجار الحاذقون والحكماء المستعدون ، تجارتهم بأيديهم منتظرون هبوب الرياح ليسيروا ويبلغوا إلى ميناء الحياة وأنا ومن يشابهني نتنزه بلا مكسب ولا فائدة !!

صلاح سيرتنا

ليس لنا شيء موضوع في ذهننا نعبر به هذا البحر ونخشى أن تهب الرياح بغتة ونوجد غير مستعدين ... وسنبكي هناك على أيام توانينا ناظرين إلى الآخرين وهم مبتهجون ومسرورون بينما نحن في وجع وحزن ، لأنه في تلك الميناء يفتخر كل أحد بتجارته وثروته ... فأخشى يا أحبائي أن تخرجنا الشهوات خارج الحذر . إن محبة الإقتناء توضح أننا لا نشتاق إلى المسيح ، والحسد دليل على أنه ليس لنا محبة في ذواتنا ، شفاهنا تستوضح مكنونات قلبنا ، متى إنفتح الفم وكان لا باب له أو حراسة فإنه يخرج كلاماً بلا تحفظ وبأقوالنا نسلب متاع قلبنا لأن فماً لا يحفظ أسرار القلب يسترق أفكاره ، والأمور التي يظن أنها باطنة تشتهر بالفم والنتائج التي يظن أنها لا ترى تنكشف . لا ينخدعن أحد بالورع الظاهر

فإنه يخدع ذاته وأخاه . من يظن أنه يقنع بالورع الظاهر فتصرفه يظهر كذب ورعه . إن شئت أن تعرف أفكار القلب فمن الفم تعرف بأي شيء تهتم وعلام تحرص ، أعلى الأشياء الأرضية أو على الأمور السمائية ... إن من كنز القلب يخرج الفم إهتماماته وهذيذ اللسان يوضح إلى ماذا تشتاق ؟ أإلى المسيح أو إلى أمور العالم الحاضرة ...

ولعل أحداً يقول إن الآلام الطبيعية تسيطر علينا والذين فيها لا جناح عليهم . أصغ إلى ذاتك ... إنه قد صنع البرايا كلها حسنة جداً وزين الطبيعة بسائر الصالحات ، فمن يجوع إذن لا يذنب إن أكل بمقدار لأن العطش طبيعي ، إذا قام أحد فلا يحطيء إلا إذا كان بلا حدود بل يدفع نفسه للنوم ، النية في الإنسان كالفلاحة تطعم في ذاتها عادات رديئة أو صالحة كما إتفقت . أما العادات الرديئة فتطعمها هكذا . تطعم في الجوع نهم البطن وفي العطش كثرة الشرب وفي النوم الاسترخاء ، وفي النظر الرؤية الشريرة ، وفي الحق الكذب ... كما أن النية تطعم الفضائل الصالحة هكذا ، في الغذاء الإمساك ، في العطش الصبر ، في النوم السهر ، في الكذب الحق ، في النظر التعفف ... فمن تقتلع العادات الرديئة وتطعم الفضائل الصالحة فتغلب الطبيعة . فأرض عملنا هي الطبيعة والفلاح هو النية والكتب الإلهية هم المشيرون والمعلمون يعلمون أية

عادات تقتلع وأية فضائل صالحة تغرس . فما دام الفلاح مستفيقاً وحريصاً من قبل تعليم الكتب الإلهية فهو قوى لأن الكتب الإلهية تعطيه فهماً وقوة ، تعطيه فضائل صالحة ليطعم بها شجرة الطبيعة ، تعطيه أمانة فى عدم الأمانة ، ورجاء فى عدم الرجاء ، ومحبة فى البغضاء ومعرفة فى عدم المعرفة ، وحرصاً فى التوانى ومجداً ومديحاً فى عدم الشرف ... فإن شاء وقتاً ما بتعظمه أن يترك المسلم والمشير عليه أعنى الكتب الإلهية أخفى تائهاً يصادف نتائج خبيثه إذ يرى عادات لا نفع فيها ويطعمها فى الطبيعة من عدم الأمانة والجهل والبغضاء والحسد والكبرياء والسبح الباطل والنهم ... لانه بتركه المشترع تركه ، فإن ندم وتاب قائلا قد أخطأت إذ تركتك يقبله المشترع فى الحين ويمنحه فهماً واقتداراً صالحاً ليعمل أيضاً أرض فلاحته وطبيعته ويقتلع منها العادات الرديئة وينصب عوضاً عنها أبراج الفضائل الصالحة ويمنحه أكاليل المجد ... وهكذا كما قلت أنه يجوع بالغريزة فيحتمى بالصبر، يعطش لكنه يتجلد ، يشتهى لكنه يتعفف، يثقل بالنوم أو يشتمله بحر فى تمجيد السيد لكنه يسهر ويجهد ذاته فى تسبيح الله ، وكذلك يكمل إذا غلب الطبيعة واقتنى الفضائل.

محبة يسوع للخطاة

المجد إذن لتعطفه والشكر لصلاحه والسجود لتحننه ، الرب الرؤوف ، الآب الرحوم . أى اب هكذا يحب مثل سيدنا الذى أحبنا نحن عبيده ويهب لنا كل شىء ويدبر أمورنا ويشفى جراحات نفوسنا بأنواع الأدوية ويتمهل علينا إذا خالفناه ويشاء أن يخلصنا كلنا ويشاء أن يصيرنا وارثين ملكه ...

الطوبى لمن ذاق محبته وأعد ذاته أن يمتلىء منها دائماً فإنه إذا امتلأ من مثل هذه المحبة لايقبل فى ذاته محبة أخرى .

يا أحبائى من يحب مثل هذا السيد ؟

من لا يسجد ويشكر لصلاحه ... ؟

أى إعتذار لنا فى يوم الدينونة إن توانينا وماذا نقول ؟ أنقول أنا ما سمعنا أو ما علمنا . ماذا يبقى أن يعمل ولم يعمله بنا ؟ أما نزل من السماء من حضن أبيه ؟ أما شوهد الغير المرئى هنا وهو الغير مائت ألم يتجسد من أجلنا ، أما لطم ليعتقنا... ؟

يالعجب الموعب خوفاً ورعباً أن يدأ طينية خلقت من طين الأرض لطمت بارى السماء والأرض، ونحن الأشقياء والأدنياء ترابيون وماتتون ورماد ولا نحتمل كلمة ... هو غير المائت . ألم يمت من أجلنا ليحيينا ؟ ألم يدفن ليبعثنا معه ؟ لقد فككنا من رباطات العدو وقيوده وأعطانا سلطاناً أن ندوسه .

متى إستعنا به فلم يجبنا ، أو قرعنا بابه فلم يفتح لنا ولو تباطأ وقتاً ما ...

أيها الحبيب دعيت إلى محاربة وتروم أن تصادف أعداءك بغير أسلحة ؟ عوض السهر تنحدر إلى النوم ، وعوض البكاء والنحيب تبدل ذاتك للضحك. وبدل المحبة تكن البغضاء لصاحبك جئت إلى الطاعة وأنت تحاوب ، جئت لترث ملكا وأنت تقيد نفسك بالمعقولات الأرضية . وعوض التواضع والوداعة تشتغل بالتعظم والتكبر .

الاستعداد وعدم التوانى

ماذا تقول فى ذلك اليوم ؟ أتقول إنى تواضعت من أجلك وتمسكنت وتعريت ، وجعت وعطشت إلى محبتك من كل نفسى وأحببت قريبى كنفسى. أعلم أن أقوالك وأفكارك غير مكتومة... أو لا تعلم أن البرايا كلها تقف أمام مجلسه بخوف ورعب شديد وتحوط به ألوف ألوف وربوات الملائكة ورؤساء الملائكة ...

إستيقظ من نومك وعد إلى ذاتك ، إجمع أفكارك وانظر النهار فإنه قد مال .

افهم هذا المعنى أيها الأخ ان اخوتنا الذين كانوا معنا بالأمس

يكلموننا ، ليسوا معنا اليوم لأنهم دعوا إلى ربهم وربنا ، يريه كل واحد منهم تجارته .

ها أنتم قد عرفتم أمور أمس الماضى وأمور اليوم . كيف مضى أمس كزهرة صباحية وكيف عبر هذا اليوم . تأمل أمتعة تجارتك إن كانت قد نمت استثمارانها من أجل الله لأن أيامنا تجوز سريعاً .

الطوبى لمن يتجر وينمى بضاعته يوماً فيوماً ويجمع فوائد الحياة الدائمة .

لم تتوان أيها الحبيب ؟ تضرب لك مثلا ـ شخصان مسافران أحدهما مع الآخر فى الطريق وكلاهما ذاهب إلى منزله ، فلما أدركهما كليهما المساء نزلا فى الفندق الذى وصلا اليه ، ولما صارت الغداة فارق أحدهما الآخر ، وكل منهما يعرف ما له فى منزله ، إما غنى وإما فقراً ، إما نياحة وإما حزناً ، هكذا نحن فى هذا العالم فإن هذا العمر يضاهى مسكناً ومنه نفترق ذاهبين إلى موضعنا عالمين مالنا أمامنا لان كل واحد منا لا يجهل ما تقدم به وأرسله إلى السماء . أأرسل صلاة بدموع أو سهراً نقياً أو ترتيلا أو تخشعاً أو تسكاً بانضاع أو زهداً فى الأمور الأرضية أو محبة بلا رياء واشتياقاً إلى المسيح . إن كنت سبقت فأرسلت هذه

فتثق أنك ستمضى إلى نياحة وراحة وإن كنت ما أرسلت ولا واحدة منها فلم تغيظ قريبك فى مسكن الاغتراب لأنك غداً تفارقه ، لم تتكبر؟ لم تتعظم ولم تحقد وتكنز؟ . أتؤثر أن تحمل المسكن معك ؟! لم تهتم من أجل الثياب والملابس والطعام ؟ المعطى البهائم غذاءها ألا يغذيك أنت الذى تجده ؟ . يا من ترجو أن تصير وارثاً أنهتم بالثياب والملابس ، يا من قد أمت ذاتك عن العالم أتقيم فى المعقولات الأرضية ؟ ...

لماذا تغيظ الطبيب بأنك تؤثر أن تبرأ وفى زمان مداواتك تخفى جراحاتك وتدعى على الطبيب أنه ما أبرأك ، قد أعطيت وقتاً للتوبة وأنت تتوانى فى التوبة فبماذا تدعى ؟

أفق أيها الحبيب متيقظاً فإن تلك الساعة كالفخ توافى إليك وحينئذ يشتمل ذهنك الذهول وتقول كيف جازت أوقاتى وكيف عبرت أيامى فى حال تزهى فى الأفكار الغير واجبة ، وما المنفعة أن تفتكر بهذه وقت الموت وان يسمح لك أن تعود إلى هذا الدهر .

ضع نصب عينيك المعقولات ولتدخل فى مسامعك أقوال الرب إن كنت تصدقه لأنه هو قال انك تعطى فى ذلك اليوم جواباً عن كل كلمة بطالة . فليخزنا المكتوب لأن الذى يتفهم

المكتوب ولا يعمل به فهو يضاهى كوب ماء يقبل المساء ولا يحس انه يحوز فيه .

ترى من لا يبكى ؟ من يرى ولا يحزن ولا يذهل ، إن سيد الدنيا كلها يهتف بذاته وبعبيده الرسل والأنبياء ويكرز صارخاً وليس من يسمع ... العرس معد والمسمنات قد ذبحت والختن جالس بعظم جلاله ومجده ، يستقبل المقبلين إليه بفرح . الباب قد فتح ، الخدام متسارعون فاستعدوا قبل أن يغلق الباب لئلا تبقوا خارجاً ولن يوجد من يدخلكم . إننا مع ذلك لا نحرض بل نضطجع ونهتم بهذا الدهر .

ترى من هو الذى يسافر بلا زاد فى طريق بعيدة ؟ الاخاء نحن أن نترك زادنا هنا فلا نأخذ معنا شيئاً للسفر ؟

مغبوط من يسافر إلى الرب بدالة حاملا زاده غير محتاج إلى غيره ... أنه يصير من السماء بغتة دوى عظيم ورعود مرهبة وبروق مفزعة مع زلزلة ... يذهل بغتة الراقدون ويتذكر كل واحد أعماله التى عملها إن صالحة وإن طالحة . يقرعون صدورهم صارخين على مضاجعهم لأنه ليس لهم موضع يهربون إليه أو يختفون فيه . ليست ساعة مندم ينوحون فيها على ما عملوا لأن الأرض تتزلزل والرعود ترعب والبروق تذهل وظلمة مخيفة

تحدق بهم ، هكذا تكون تلك الساعة تزعج الأرض كلها كبرق حاد مدلهم لأن البوق يبوق بخوف من السماء وينهض الراقدون وينتبه الهاجعون منذ الدهر ، لأن هذه السموات مع كافة قواتها تضطرب والأرض تتموج كلها كالبحر مرتعدة من تجاه مجده لأن ناراً مرهبة تتقدم بسعيرها. أمامه تنظف الأرض من المآثم التي دلستها، ويفتح الجحيم أبوابه الدهرية ويبطل الموت - ويقوم تراب الطبيعة البشرية إذا سمع صوت البوق ويحيا ، وبالحقيقة يكون ذلك عجباً إذ يتم في طرفة عين ،لأنه كالسمك الكثير الذي يذهب ويجيء ويتقلب في البحر هكذا عظام الطبيعة البشرية التي لا تحصى . يجتمع كل منها طالباً مفصله وإذا نهضت تحاضر كلها وتقول المجد لمن جمعنا واستنهضنا بتعطفه على الناس ، وحينئذ يبتهج الصديقون ويسر الأبرار ويتعزى القساك الكاملون من تعب نسكهم والشهداء والرسل والأنبياء يكللون .

الطوبى لمن يستحق أن يرى تلك الساعة كيف يمجد يخطف في الحب لاستقبال الختن الذي لا يموت وكافة الذين أحبوه وحرصوا أن يتمموا مشيئاته لأنه هكذا يطيرون إلى شواهق الأعالي ، وبمقدار ما نظف كل واحد ذهنه ونقاه هكذا يبصر مجد الله ، وبقدر ما اشتاق الإنسان إليه هكذا يتملى شبعاً من

محبته . ويتعجب في تلك الساعة آدم الأول إذا أبصر العظائم والأمور الرهيبة ، كيف قد حضر منه ومن قريته ما لا يحصى من كثرة الأجناس . . .

وبعد ذلك يقول القديس في تواضعه ونظره إلى قياس ملء النعمة والكمال سيدنا يسوع المسيح :

يا أحبائي . . . لقد تذكرت تلك الساعة وارتعدت وتأملت تلك الديونة المفزعة فاندهلت وذلك السرور الذي في النعيم فتنهدت وبكيت حتى لم يبق فيَّ قوة لابكي أيضاً . لأن أيامي قد عبرت في التوالي والتنزه ، وفي الأفكار الدنسة أكلت سني حياتي ، كيف سرقت ولم أعلم ، كيف عبرت ولم أحس ؟ فأيامي فنيت وآثامي تكاثرت .

ويصرخ متخشعاً في حسن عبادته :

ويل ويل يا أحبائي ماذا أصنع بخزي تلك الساعة إذا طاف حولي الذين يعرفوني والذين لما أبصروني في هذا الزي طوبوني وأنا من داخل موعب إثماً متناسياً الرب فاحص القلوب والكلى .

بالحقيقة إن هناك الخزي والافتضاح ، والشق هو الذي يخزي هناك .

صلاة للقديس

« . . . أيها الصالح العطوف . . .

أستحلفك برأفتك ألا توقفنى عن اليسار مع الجداء التى أغاظتك ولا تقل لى لست أعرفك ، بل أعطنى يتحنن بكاء دائماً وتخشعاً .

أعطِ قلبى تواضعاً وطهره ليصير هيكلا لنعمتك المقدسة لأنى وإن كنت خاطئاً ومنافقاً لكننى قارعاً بابك بمداومة ، ولئن كنت عاجزاً متوانياً لكننى فى طريقك سالك .

لك المجد والكرامة من الآن وإلى أبد الدهور آمين » .

يا إخوتى الأحباء . . .

أتضرع اليكم أن تصمموا على أن ترضوا الله مادام موجوداً . ابكوا قدامه نهاراً وليلا فى صلواتكم وترنيمكم لينقذكم من ذلك البكاء الذى لا ينقضى ومن صرير الأسنان ومن نار جهنم ومن الدود الذى لا يهدأ ، ويفرحكم فى مملكته فى الحياة الخالدة حيث يهرب الوجع والحزن والتنهد ، حيث لا يحتاج أحد دموعاً ولا توبة . حيث ليس مخافة ولا رعدة . . . لا فارق هناك أو تفاضل ، حيث لا يوجد المحارب والمعاند ،

حيث ليست خصومة أو سخط ، ليست هناك بغضاء أو شحناء لكن هناك فرحاً وسروراً وابتهاجا ومائدة مملوءة أطعمة روحانية أعدها الله للذين يحبونه ، فغبوط من يؤهل لها وشقى من يحرم منها .

ويردد القديس فى تأملاته هاتفاً : -

أطلب اليكم يا أحبائى أن تسكبوا علىَّ تحننكم وتشفعوا عنى ساجدين لابن الله الوحيد الصالح العطوف . . .

ليصنع معى رحمة . . .

وينجينى من غرارة مآثمى . . .

ويسكننى حول مساكنكم فى ساحات الفردوس المبارك الوارثين إياه . . .

حتى أصير جاركم لأنكم أنتم الأولاد المحبوبون . . .

يا أحبائى اسكبوا صلواتكم . . .

فلنحرص من أجل حياتنا فإن الأشياء كلها تعبر كمبور الظل .

ولنبغض العالم والأشياء التى فى العالم والاهتمام البشرى .

لا نتخذ إهتماماً آخر سوى الاهتمام بخلاصنا كما قال ربنا : « ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه أو ماذا

يعطى الإنسان فداء عن نفسه » .

أيها الإخوة نحن تجار روحانيون فلنتشبه بالتجار العالميين، فالتاجر يحسب كل يوم ربحه وخسارته فإن خسر يحرص ويهتم كيف يعوض خسارته ، كذلك أنت أيها الحبيب فى كل صباح ومساء وغداة تأمل بمبالغة كيف ترعى تجارتك ، وفى كل عشية افحص قلبك وتفكر وقل فى ذاتك :

أترانى أغضبت الله فى شىء أو تكلمت كلمة بطالة أو جدفت ؟

أترانى أغضبت أخى أو إغتبت أحداً ، هل رتل فى العالم ؟ أو تخيل ذهنى الأمور التى فى العالم ؟ أترى جاءت فكرة شهوة فقبلتها بتلذذ ؟ أو إنغلبت للهموم الأرضية . . .

تأمل ذاتك وقل كيف عبرت هذه الليلة أربحت فيها تجارتى . أسهر عقلى مع جسمى ؟ هل أدمعت عيناى دموعاً عند إحناء ركبتى ؟ أو جاءت إلىَّ أفكار خبيثة فتأملتها . إن انغلبت فى هذه فاحرص أن تشفى وأقم حارساً فى قلبك لئلا تصاب بهذه نفسها . إن إهتممت هكذا فستسلم تجارتك وتسير مرضياً لله رابحاً لنفسك .

إصغ إلى ذاتك واحذر أن تدفع ذاتك إلى التوانى والرقاد

فإن إبتداء الهلاك تمرد النية . تأمل النحلة وأبصر سرها العجيب كيف تجمع صناعتها من أزهار الأرض المشتتة أنواعها . . . كن أنت مثل النحل وأجمع لنفسك من الكتب الإلهية غنى وكنزاً لا يسلب وأرسله إلى السموات لأن رؤساء الأرض إذا آثر أحدهم أن يسافر إلى بلدة بعيدة يرسل قدامه غلمانه مع ثروته لكيما يوافى إلى راحة معدة ، كذلك أنت أيها الحبيب أرسل غناك إلى السماء لتقبل فى مساكن القديسين ولا تتوان فى هذا الزمان القصير لئلا تندم إلى الدهر الذى لا انقضاء لها .

أما سمعت الرب يقول سيكون لكم فى العالم حزن ؟ قال أيضاً بصبركم تقتنون أنفسكم ، فإن كنت مع رخاوتك وتوانيك تتشاق أن تهرب من حزن هذا الدهر ، ومن الصبر وتشكو من نير المسيح الصالح مدعياً بسبب رخاوتك بأنه صعب وثقيل . فمن ذا الذى يرحمك ؟ ومن ذا الذى يترأف عليك . . . ؟

لقد أخذت أسلحة المسيح التى تحتاج أن تحارب بها العدو فأنفذت السيف فى قلبك ، فإن كنت تتباهى بهذه الحياة فرجاؤك باطل وانتظارك فارغ .

ماذا تصلى بفمك إلى الله وما هى الوسيلة التى تطلبها منه . أنياحا فى هذا الدهر ؟ أم تطلب الحياة التى لا تفنى ؟ إن طلبت

هذه الأشياء الوقتية الغير ثابتة فإن السارق والزانى يكونان أفضل منك لأنهما يطلبانها ...

أحسبت أيها الشقى أن الإله الصالح المتعطف ينكر تعبك وهو الذى منحك قوة ونعمة وخشوعاً . إنه يعطيك ثوابك والأشياء كلها منه وأنت تتعظم ... إنه يطالب بأجرة الأجير من الذين ينكرونها عليه أفينكر عليك أجر دموعك وخشوعك ؟ حاشا لأن الذى قال أطلبو تجدوا إقرعوا يفتح لكم أيصير كاذباً ؟ حاشا وكلا ...

منذ الآن عد إلى ذاتك ولا تمقت نفسك ، إفتح عينى ذهنك وابصر الذين معك كيف يجاهدون ، وكيف يحرصون وهم يسكنون بمصابيحهم وفمهم يسبح ويمجد الختن الذى لا يموت وأعينهم تتأمل جماله وأنفسهم نضرة وبهجة ...

سيصير بغتة صوت : ها هو الختن آت فيجيء الذين معك بفرح ومصابيحهم معهم مضيئة وحللهم منيرة فإذا سمعوا صوته القائل : تعالوا يا مبارك أبى رثوا الملك المعد لكم من قبل إنشاء العالم . فبعد أن يصير الصوت تقول يا إخوتى أعطونى زيتاً قليلا لأن مصباحى ينطفىء فيسمع منهم لعله لا يكفى لنا ولك لمضى إلى الباعة فاشتر . فتمضى نادباً ومغموماً ولا تجد البتة

زيتاً لتبتاعه لأن الارض كلها ترتعد كما يتموج البحر من مجد فتقول حينئذ منتحباً أمضى فاقرع ولا أعلم إن كان يفتح لى ، فإذا مضيت لتقرع لا تجد أحداً يجيبك ، فتلبث قارعاً فيجيبك من داخل قائلا : حقاً أقول لك لست أعرفك من أنت ، إنصرف عنى يا فاعل الإثم . وحال وقوفك هناك يوافى إلى أذنيك صوت السرور والابتهاج وتعرف صوت كل واحد من رفقائك فتنهد وتقول ويلى ويلى أنا الشقى كيف عدمت مثل هذا المجد الذى لإخوتى وانتزعت من رفقتى ؟ . كنت طول زمان حياتى معهم والآن بعدت عنهم . أصابنى هذا بحق فارلئك كانوا يجاهدون ويحرصون وأنا كنت أهمل واتوانى . كانوا يسهرون فى الصلوات ويصومون وأنا نائم ... هذا الآن هم يسيرون وأنا أتعب ، أولئك يبتهجون وأنا أبكى .

أفق إذن أيها الشقى قليلا متأملا محبة الله للناس التى ليس لها نهاية ولا تهمل خلاصك ، أطلبه فيكون لك سريعاً ، إستغث بالله ينصرك ... وإذا كان الصك ينطق بما فيه بتأدية الديون فأولى بالإله الصالح يعطى بالاكثر الذين يطلبون نعمته المعهودة ...

تقدم إليه بلا خجل وأسجد له بتنهد باكياً وقل :

صلاة للقديس

« يارب ومخلصي : تراءف عليّ فإنك أنت المطوف وحدك . خلصني أنا الخاطئ . وانشلني من حمأة ما أنمى لئلا أنغمس فيها إلى أبد الدهور .. أنقذني من فم العدو فإنه مثل أسد يزأر مريداً أن يبتلعني ، إنهض قوتك وهلم لتخلصني ... » .

طلب المعونة من الله

فإن إنتهلت إليه هكذا واستعنت به من كل قلبك الحبين يرسل مثل أب صالح ومتحنن نعمته إلى معونتك ويكمل كافة مشيئاتك . تقدم ولا تتوان ولا تنظر إليّ أنا المتوانى المضطجع لأنه يلم بي حزي وحمى إذ أقول ولا أعمل ، أعظ وأنا لا أفهم . لكن كن مشابهاً للآباء الكاملين الروحانيين واتبع رسمهم ولا تبتدىء بالأمور العالية جداً التي تفوق قدرتك ولا يمكنك أن تتممها ، ولا تبتدىء بالأفعال الحقيرة جداً ليكثر توانيك ، ولا ترح جسمك أكثر من اللازم لئلا يحاربك ، ولا تعوده على اللذات لئلا يصير ثقلا لنفسك ويحدرها إلى أسفل أعماق الأرض لأنك إن بذلت ذاتك لإكمال مشيئاته فإنه سيترك الطريق

المستوية ويمشي إلى الهوة ويتقبل بسهولة كل فكر شرير ولا يتعفف ، وإن ضيقت عليه فوق المقدار يصير ثقلا لنفسك ويثقلها الكآبة والضجر وينتابها السخط حتى تصبح عاجزة عن دراسة التسبيح والصلاة والطاعة الشريفة . فدبر ذاتك بقدر جيد معتدل .

قل لي أما شاهدت قط السباق أو ما رأيت قط مركباً في البحر ؟ إن الخيل إذا أسرعت بلا مقدار تخور من الجري . وإن تركت وشأنها ولم يكبح جماحها تؤذي الراكب وتطرحه . كذلك المركب في اللجة إن حملت فوق حدها تمتلىء من الامواج وتغرق ، وإن أبحرت بلا حمولة أو ثقل تقلبها الرياح سريعاً . فظير هذا المقياس النفس والجسد . إن ثقلا بلا مقدار بالاشياء المتقدم ذكرها يسقطان ، فلهذا جيد أن تبتدىء وترضي الله وتنفع ذاتك وقريبك .

السهر والجهاد

أنتم يا رعية المسيح المباركة ونجوم المسكونة وملح الأرض . أيها النساك الكاملون والمحبون وأنتم على الأرض السيرة الملائكية ، إن تعبكم وفي والمجازاة أبدية . تعبكم يسير والنياحة والسكال بلا نهاية . وعلى قدر ما تجاهدون بنشاط في تقويم الفضيلة بقدر ما يشتعل عدوكم غيظاً ويخجل لكم لخاخاً .

إصغوا إذن لذواتكم حذرين من مكامنه لانه بدون جهاد لا يكلل أحد ، ونعمة الله لا تتخلى عمن يحارب ويجاهد بنشاط ، فإن تخاذل أحدكم وعجز عن أن يفتح فمه ويستدعي النعمة لنصرته فإنه يتعلل بأن النعمة لم تعنه ، فيكون كمن كانت يداه صحيحتين وأمامه أطعمة كثيرة موضوعة ولا يمد يديه ويملأ ذاته من الخيرات المنصوبة لديه ، فمن ذاته تكون خيبته وخسارته . هكذا العابد الذي له تجربة النعمة والخبرة إذا توانى في الاستعانة بها والشبع من حلاوة أطعمتها فهو يضر ذاته دون أن يحس . يشبه العابد جندياً برز إلى الحرب وقد دجج جسده من كل جهة بعدة أسلحة متيقظاً إلى الغلبة يجاهد لئلا يظفر عليه محاربه بغتة ، فإن وجد غير متحفظ أخذ على غرة ، كذلك العابد إن إضطجع وتوانى يفتصه عدوه بسهولة إذ تخطر له أفكاراً شريرة ، أفكار إستعلاء الرأي والسبح الباطل والحسد والوقيعة وتهم البطن والنوم الذي لا يشبع منه . . . أما إذا كان مستفيقاً كل حين متيقظاً فإنه يجذب نعمة الله لمعونته ، تضيء ذهنه وتعينه ، ويقوم كل فضيلة ويستضيء بها ، وتصير له سوراً حصيناً وتحفظه في هذا الدهر لحياة الدهر الآتي .

إغسل وجهك بالدموع وارحضه بالبكاء ليشرق بمجد أمام

الله والملائكة القديسين لأن الوجه المغتسل بالدموع هو جمال لا يذبل بل يلمع أكثر من الشمس بين يدي الله والقديسين . . .

إرشادات ثمينة :

أشير عليكم يا أحبائي ألا تعدموا من أجل لذة العالم مجد الله وتتغربوا عن سرور الخدر الذي لا تبلى بهجته ، واعلموا أن تعب النسك مثل نوم وارد ، أما نياحة المكافأة فهي لا تنقضي ، فاصغ إلى ذاتك لئلا تفقد الحظين كليهما وتقع تحت طائلة الحكم احرص أن تقتني الفضيلة السامية التي يحبها الله فإنك إن إقتنيتها لا تغضب الله قط ، ولا تعمل بقربك سوءاً . إنها الفضيلة ذات النوع الواحد تحوي في ذاتها جمالا فإذا بكافة الفضائل مثل تاج الملك ، ولكي تكون تامة ومختبرة إن كانت لا تنقص واحدة من التقويمات المحصورة في الفضيلة ، فهي تضاهي أمراً عظيماً طائراً في الأعالي فلما أبصر في الشرك طعاماً إنحدر وانقض إليه بسرعة فإذ رام أن يختطف الصيد تعلق بطرف مخلبه وبذلك العضو الصغير ربطت كافة قوته ، وفيما هو يظن أن سائر أعضاء جسمه معتوق وخارج من الشرك وجد بالحقيقة أن قوته كلها قد قيدها الشرك . . . والفضيلة على هذا القياس إن ربطت بأحد الأمور الأرضية تموت وتنقسم وتهلك ولا يمكنها أن ترتقي إلى

العلو إذا سمرت بأمر أرضى وتقيدت به .

من له دموع فليجىء ليبكى ...

من لا يمكنه التخشع فليتنهد على هذه الفضيلة ...

إنها بعد أن ارتقت إلى السماء وبلغت إلى أبواب الملك لم تقدر أن تدخل . أيها الحبيب... إن قوماً قوموا الفضيلة بربوات أتعاب ووشوا أنفسهم بها كما بتاج الملك فلما ارتبطوا بأمر أرضى هلكوا ووقفوا خارج الملك السمائى . فصن ذاتك وحذار أن تشتبك فى شىء من هذا فتدفع ذاتك إلى العدو وتحل الفضيلة التى إقتنيتها هكذا بأتعاب جزيلة وتمنعها من الارتقاء الى السماء ، لكن اعطها دالة أن تدخل بصوت عال مبتهجة نائلة ثوابها ...

يا للعجب !! ان سيفاً يربط بشعره ويساق هنا وهناك ، هذه حال الفضيلة اذا ربطت باهتمام أرضى تهوى إلى الارض ويذل شرفها لان هذه الفضيلة بالسمع أشبه .

أيها الحبيب ... حرك ذاتك واقطع هذا الرباط الحقير كيلا يضحك عليك ويكون مثلك مثل ذلك القوى الذى قتل فى لحظة ألوفاً وقتل أعداءه ثم أسلم نفسه بإنتزاع شعره بسفاهته إلى الأعداء وقيد قوته المرهوبة والعجيبة جداً ...

إصغ إلى ذاتك ولا تربط الفضيلة بعمل ردىء ما ...

صلاة للقديس

أيا ربى يسوع

أتضرع إليك أن تشفى كلوم نفسى ، وتضىء عيونى ذهنى ، لاتأهل تدبيرك فى ، وإذ قد فسد ذهنى فلتصلحه نعمتك ... ماذا أقول ياذا العلم السابق والفاحص القلوب والكلى ، أنت وحدك تعلم أن نفسى كالأرض الفاقدة الماء قد عطشت إليك وتاق إليك قلبى لأن الذى يحبك حباً دائماً تشبعه نعمتك ، فكما إستمعت إلى دائماً لا تعرض الآن عن وسيلتى فإن ذهنى مثل أسير لك وإياك يطلب .

أيها المخلص الحق :

أرسل نعمتك لكى إذا جاءت تشبع جوعى ، وتروى عطشى ، إليك أشتاق ، إليك أعطش .

يا نور الحق :

إعطنى طلباتى ، واقطر فى قلبى نقطة واحدة من محبتك ، لتتقد كاللهيب فى قلبى وتحرق أشواكه ...

إن كنت خالفت وأخالف لأني ترابي وابن ترابي، إرو عطشي،

يا من أشبعت الخمسة آلاف من خمس خبزات : إشبع جوعي .

أيها المتعطف الصالح ، يا من قبلت فلسي الأرملة ومدحتها : إقبل طلبة عبدك وامنحني وسيلتي لأصير هيكلا لنعمتك ، تسكن في وتسكبح جماح ذهني بلجام محبتك لكيلا أضل فأحطي. إليك وأخرج من نورك .

أهلني أن أدعى وارثاً للملك وأقدم ثماراً ملومة خشوعاً واعترافاً بشفاعات كافة قديسيك آمين .

اليقظة والحذر

أطلب إليكم أن تستيقظوا في هذا الزمان القصير وتجاهدوا في هذه الساعة الحادية عشرة فإن المساء قد حان ومعطي الأجر ، سيوافي يمجد ليعطي كل واحد نظير أعماله . إحذروا أن يتوانى أحدكم في تقويم الفضائل فيضيع أجره .

مثل العابد مثل حقل مزروع لفلاح ، ينمو زرعه بالأمطار وبالندى فإذا بلغ أوان الثمار جعل الفلاح في إهتمام أكثر لئلا يفسده البرد أو الوحوش البرية حتى يحين حصاد الغلة ، حينئذ

ينقل الفلاح إلى المخازن ثمر أراضيه فرحاً مسروراً شاكراً الرب ، كذلك العابد طالما كان في هذا الجسد ينبغي له أن يهتم من أجل الحياة الأبدية ، يتعب في النسك إلى يومه الأخير لئلا يتوانى ، يهتم بلا رجوع إلى أمر لا منفعة له فيه وإذا أكمل سعيه يحمل إلى السماء كهذا الفلاح ثمرات أتعابه صائراً بذلك للملائكة فرحاً وسروراً . فلا يضطجعن أحدكم أو يدهش من التجارب :

ليعتمد قويكم الضعيف وليعز النشيط منكم الصغير النفس .

لينهض المستفيق منكم من غلب بالنوم .

ليعظ الثابت في ترتيبه من لا ترتيب له .

لينتهر المتيقظ من لا تحفظ له .

وهكذا المسيح المخلص يؤازرنا كلما فغلب ونخزى العدو مصارعنا ونمجد إلهنا وتسر الملائكة وينتفع الذين يبصروننا منفعة عظيمة .

لنحذر كل ما يدلس النفس . العث يقرض الثوب ويفسده ، والوقيعة تدلس النفس . السوس يفسد الخشب وتفنيه والعداوة

فى قلب الإنسان المتكبر المتعظم مثلها مثل شجرة مرتفعة وبهية لكن لاثمر فيها. الحسود المناقس كشمر يهى من ظاهره قد أصاب باطنه العطب . المجاوبة بغضب تزعج ذهن القريب ويكدر العين الصافية من يلق حجراً فيها . . . بناء لا أساس له من لا صبر له على الأحزان . من يتكلم وقت الترتيل مثله مثل إنسان مثل أمام الملك وكان الملك يخاطبه فناداه نظيره فى العبودية فما كان منه إلا أن ترك مخاطبة الملك العجيبة الشريفة وتحدث مع نظيره فى العبودية .

فلنفهم يا إخوتى أننا بين يدى الملك ماثلون ...

الملائكة وقوف برعب كثير يعطون التسبيح للبارى، يجب علينا نحن أن نقف بجهاد فى أوان الترتيل. لا نكون قياماً بأجسادنا وبأذهاننا تتخيل وتتصور امور العالم . لنجمع افكارنا ليكون لنا فخر عند إلهنا ونصبر على تجارب عدونا ...

بشفاعة العذراء القديسة مريم وجميع القديسين الذين ارضوك انعم لنا يارب بمغفرة خطايانا .

† † †

أودع بدار الكتب تحت رقم ٢٤٦٩ لسنة ١٩٧٥